ألوشا الوعاء

ليو تولستوي ❖
ترجمة: فضيل المنفي

كان ألوشا الأخ الأصغر لإخوته. لُقِّب «بالوعاء» لأن أُمّه أرسلتْه ذات مرة بوعاء حليب إلى زوجة الشَّمّاس، فتعثَّر بشيء وكُسر الوعاءُ، فعاقبتْه أمُّه بالضرب. ومنذ ذلك الحين أخذ الأطفالُ يضايقونه ويجْرون خلْفه، ويلَقّبونه «بالوعاء.»

كان ألوشا صغيرًا، نحيفَ البنْية، ذا أذنيْن كبيرتيْن كالأجنحة، وأنفٍ ضخمٍ يُشْبه الكلبَ الموجود على التلّة.

لَم يُوَفَّقْ ألوشا في دراسته؛ إذ كان يذهب إلى مدرسة القرية ولكن لم يكن لديه الوقتُ الكافي للدراسة، وكان أخوه الأكبر يعْمَل لتاجرٍ في المدينة، وكان على ألوشا أن يساعد والدَه لمواجهة ضغوط الحياة.

عندما أتمَّ ألوشا السادسة من عمره كان يذهب مع الفتيات لمشاهدة الأبقار والخراف في المرعى. وعندما بلغ الثانية عشرة اتَّجه تفكيرُه إلى الاعتناء بالخيول ليلاً ونهارًا، وأصبح قادرًا على الحَرْثِ وقيادة العربة. وعلى الرغم من مهارته العالية إلا أنّ قوّتَه الجسديّة لم تسمحْ له بذلك.

كان دائمَ الابتهاج، حتّى إنّ أصدقاءه إذا سخِروا منه ضحك أو صمت. وكذا كانت حالُه إذا وبّخه أبوه، إذ كان يقِف صامتًا مصغيًا بانتباه، حتى إذا انتهى التوبيخ ابتسم، ثمّ واصل عمله.

عندما بلغ التاسعة عشرة، اضطرَّ ـ بأمْرٍ من والده ـ إلى أن يعمل حمّالاً مع التاجر بدل أخيه الذي ذهب لأداء الخدمة العسكريّة. فأعطاه والدُه حذاءَ أخيه القديم، ذا الساق المرتفعة، ومِعطفه وقبّعته القديمة، ثمّ أخذه إلى المدينة. فرح ألوشا بملابسه كثيرًا، ولكنّ مظهرَه لم يُعجب التاجر

قال التاجر لوالده، وهو ينظر إلى ألوشا بتمعُّن: «اعتقدتُ أنّك ستأتيني برجلٍ بدلاً من سيمون، فإذا أنت تُحْضِر لي هذا! ما فائدته؟» قال والدُه: «إنه يستطيع أنْ يفعل كلّ شيء. إنّه يهتمّ بالخيول ويقودها، وهو أفضلُ من يقوم بمثل هذه الأعمال. نعمْ قد يبدو لك نحيفًا، ولكنّه قويٌّ جدًا؛ فضلاً عن أنّ لديه رغبةً شديدةً في العمل.» نظر إليه التاجرُ وقال: «حسنًا، سنرى ماذا يستطيع أن يفعل.»

عاش ألوشا مع عائلة التاجر التي لم تكنْ كبيرة: فهي تتألّف من زوجته، وأمِّها الطاعنة في السنّ، وولديْن وفتاة. أمّا الأوّل فلم ينلْ من التعليم إلا قليلاً ولكنه تزوّج وعَمِل مع والده في مهنة التجارة. وأمّا الآخر فقد أكمل التعليم المتوسِّط، ودَخل الجامعة، ولكنّه طُرِدَ وبقي في البيت. وأمّا البنت فمازالت صغيرةً وتذهب إلى المدرسة.

لم تستطعْ عائلة التاجر تقبُّلَ ألوشا في بادئ الأمر؛ إذ كان خشِنَ الطِّباع، رثَّ الثياب، يفتقد الأسلوبَ الجيّدَ في التعامل. لكنّهم سرعان ما اعتادوه؛ فقد كان إنجازُه للعمل أفضل من أخيه نظرًا إلى كونه راغبًا في العمل، يُنْجِز المهمّات التي لا حصر لها بسرعة وسهولة، وينتقل من مهمّة إلى أخرى دون كلل أو ملل. لذا كانت كلُّ أعمال المنزل ملقاةً على كتفيْه، وكلما أنْجَزَ مهمّةً أتته مهمّةٌ أخرى، سواء من سيّدته أو أمِّها العجوز أو الابن أو الابنة أو كبير الخدم والطباخة؛ فكلّهم يُعطيه الأوامر، ويرسله إلى أماكن شتّى.

اعتاد ألوشا سَماع الأوامر يوميًا من كُلِّ أفراد البيت: ألوشا، افعلْ هذا وذاك، ألوشا، لِمَ نَسيت؟ ألوشا، انتبهْ ولا تنسَ، ألوشا لِمَ لَمْ تَفْعل؟ مِثْل هذه الألفاظ تتردّد على مسامعه من طلوع الفجر حتى المساء، فأصبح يعتني بهذا وذاك، لا ينسى شيئًا، ويجد الوقت لكلِّ شيء، والجميع مبتهج دائمًا.

تآكَلَ حذاءُ ألوشا (وهو في الأصل حذاء سيمون أخيه) من كثرة العمل، حتّى برزتْ أصابعُ قدميه من الأمام، فعاتبه سيِّدُه، واشترى له حذاءً آخرَ جديدًا، ففَرِح به كثيرًا، ولكنّه كان يتألّم منه بشدّة من كثرة السير؛ وكذلك كان خائفًا مِن غضَبِ والده عندما يعطيه الأجر ويجد ثمنَ الحذاء الجديد مخصومًا منه.

كان ألوشا، إذا حلّ فصلُ الشتاء، يستيقظ قبل بزوغ الفجر، فيقطِّع الخشب، ويكنس الساحة، ويُطْعم الأبقار والخيول، ويُشعل المواقد، وينظِّف الأحذية، ويلمِّع آنيَة الفضيّة. أحيانًا كان يبعثُه كبيرُ الخدم لجلْب السلّع، أو تأمرُه الطبّاخة بعَجْن الخبز، أو بتنظيف آنيَة الطَّهْي. ثم يذهب إلى المدينة لمهمّات مختلفة، بادئًا بإحضار ابنة التاجر من المدرسة، أو لجلب بعض زيت الزيتون للجدّة. كان الأولُ يقول: «عليكَ اللعنة، لِماذا تأخّرتَ؟»، والثاني يقول: «لماذا نذهب نحن ما دام ألوشا يستطيع أن يفعلَ ذلك؟!»

❖ ـ كاتبٌ روسيٌّ أشهر من أن يُعَرّف وتُعتبر قصته هذا نموذجًا على اللغة البسيطة والمكثّفة

ومع ذلك فقد كان ألوشا يتناول إفطارَه خلْسةً أثناء عمله اليوميّ. وكان نادرًا ما يتناول غداءه وعشاءه في وقته لكثرة أعماله وانشغالاته. وكانت الطبّاخة تعاقبه لتأخُّره؛ لكنّها ترجع وتأسَف لحالِه، فتحفظ له الغداء والعشاء ساخنًا.

كان العمل يتزايد أكثر من أيِّ وقتٍ آخر في أوقات العطلات. غير أنّ ألوشا يحبّ تلك العطلات؛ فقد كان يَجْني إكراميّة مِن كلِّ شخص، لم تكن «محرزة» بالطبع، ولكنه يعتبرها مِن ماله الخاصّ، وكانت تصل إلى ٥ دولارات.

أمّا أُجْرتُه الأساسيّة التي يتقاضاها من التاجر، فكان لا يستطيع أن يراها ولو بالعين؛ إذ سرعان ما يأتي والدُه ويأخذها من التاجر في لمح البصر، وفي كل مرّة يوبِّخ ألوشا لارتدائه الحذاء الجديد وخصم ثمنه من الأجر!

ادَّخَر ألوشا ١٠ دولارات، واشترى بها سترةً حمراء، وذلك بعد أن نصحَتْه الطبّاخةُ بشرائها. كان سعيدًا جدًا لارتدائها، لكنّه لم يستطعْ أن يخفيَ الأمرَ من شدّة بهجته وسعادته.

كان ألوشا عادةً صامتًا. وإذا تحدّث فجأةً وَجّه رأسَه إلى الناحية الأخرى. وحينما يُسأَل أو يُكلَّف بعمل شيءٍ ما يستطيع فعله، أجاب نعم؛ ومن دون أيّ تردُّد يبدأ في العمل مباشرةً.

نسي ألوشا ما علَّمَتْه إيّاه أمُّه عن الصّلاة، لكنّه كان يصلّي كلَّ صباح ومساء، رافعًا يديه، وداعيًا لنفسه. عاش حياته على هذا النحو سنةً ونصف السنة. ومع اقتراب نهاية السنة الثانية حدث له شيء مُذْهل؛ فقد اكتشف ذات يوم مفاجأةً عظيمةً: اكتشف أنه إنسانٌ يهْتم به شخصٌ ما.

فقد وُجِد داخل أُسْرة أرادت أن يهتمَّ بأفرادها ويلبّي احتياجاتهم؛ فكان مُجرّدَ شخص يُراد منه تلميعُ الأحذية وإنجازُ المهمّات المختلفة وربط الأحزمة الجلدية للخيول. ولكنْ كان هناك شخصٌ يعتني به ويعْطِف عليه، فأحسّ بتغيير جذريّ في حياته. ذلك الشخص هو الطبّاخة أوستينيا.

الطباخة أوستينيا شابّة صغيرة فَقَدَتْ والديْها، وتعمل بجدّ وعناء مثله تمامًا. ولقد شعر ألوشا من خلال تعامُلها معه أنّه ليس خادمًا، بل إنسانٌ ذو شأنٍ كبير بالنسبة إليها. وتجلّى ذلك حين تذكر أمَّه التي كانتْ آسِفةً عليه؛ لكنَّه لَم يلْحَظ ذلك، وبدا له الأمرُ طبيعيًا، وكأنَّه لم يكنْ حزينًا على نفسه.

كانت أوستينيا تحفظ له الطعامَ ساخنًا. وحين يأكل كانت تجلس تُراقبه واضعةً يدها على خدِّها، رافعةً كمّيْها إلى الأعلى. وكان ينظر إليها، ثم يضحكان

كان ذلك شيئًا جديدًا وغريبًا، الأمر الذي أخاف ألوشا؛ فقد كان يخشى أنْ يصطدم هذا الشعور الجديدُ بعمله لكنّه كان مسرورًا، وأصبحت أوستينيا تشغل بالَه أثناء عمله وراحته، حتى إنه لَيَسْعَد من كلِّ شيءٍ تفعله. فحينما ينظر إلى بنطاله الذي أصلحتْه له يسعد كثيرًا، ويصيح بصوت عالٍ «أوستينيا فتاة لطيفة.»

كانتْ تُساعده بقدْر ما تستطيع، وكان هو أيضًا يفعل ذلك.

أخبرتْه تفاصيلَ حياتها كاملةً. حَكَتْ له عن فقدانها لوالديها، وكيف جاهدتْ عمّتُها في إيجاد مكانٍ لها في المدينة. وجلستْ تسرد له مُحاولة ابن التاجر سلْبَ حريّتها، وكيف أنّها تصدّتْ له.

أحبّت أوستينيا التحدّث إلى ألوشا، وأحبّ هو الإصغاء إليها؛ فقد سَمع أنّ الفلاحين الذين أتَوْا للعمل في المدينة غالبًا ما يتزوّجون من الخادمات. وذات مرة سألَتْه ما إذا كان والداه يَنْويان تزْويجَه قريبًا، فأجاب: «لا أعلم شيئًا عن هذا الموضوع، لكنّي لا أريد أن أتَزَوَّج بفتاة ريفيّة.» قالت: «هل لديك ميولٌ إلى شخص ما إذًا؟ قال: «أُريدُ الزَّواج منكِ إذا كُنْتِ ترغبينَ في ذلك؟» قالت متعجبةً وصافعةً ظهره بالمنشفة التي تحملها بين يديها: «ولِمَ لا؟ سأكون سعيدةً معك يا ألوشا الوعاء. لقد تعلَّمْتَ كيف تتحدّث، أليس كذلك؟!»

وصل والد ألوشا إلى مدينة شروفيتايد ليأخذ الأجرَ من التاجر. وبطريقةٍ ما علِمَتْ زوجةُ التاجر أنّ ألوشا يريد الزواجَ بأوستينيا، فانزعجتْ وقالت في نفسها: «ما فائدتها إذ أنجبت لنا طفلاً؟» ومِن ثمّ أبلغتْ زَوجَها مباشرةً بذلك.

أعطى التاجر الأجر لوالد ألوشا. قال والد ألوشا: «كيف حالُ ابني معك؟ هل اقتنعتَ بأنّه راغبٌ في العمل؟» قال التاجر: «كلُّ شيءٍ على ما يرام. لكنّه يفكّر في فعْلِ شيءٍ أحمق؛ فهو يريد الزواجَ بالطبّاخة أوستينيا، وأنا لا أؤَيِّد زواج الخدَم. فإذا فعلوا ذلك فلن يكونَ لهم مكانٌ في المنزل.»

قال والد ألوشا متعَجِّبًا: «كيف فكّر هذا الغبيُّ في شيءٍ كهذا؟ لا تقلقْ، سوف أحسم الأمر.» ثم ذهب إلى المطبخ، وجلس على الطاولة ينتظر ابنَه.

دخل ألوشا لاهثًا من مهمّةٍ ما خارج المنزل، فبادره والدُه قائلاً: «اعتقدتُ أنّك تمتلك بعضَ الحكمة، فما الذي تحمله في رأسك؟» قال ألوشا: «أنا؟ لا شيء.» قال والده: «كيف لا شيء؟ لقد أخْبَروني أنّك تنْوي الزواج، وهذا لن يكون الآن. سوف أُزوِّجك حين يحين الوقتُ المناسب، وسأختار لك زوجةً محترمةً ليستْ كفتيات المدينة.»

ظلَّ والدُه يتحدّث وقتًا طويلاً. أمّا هو فظلّ واقفًا يتهنّد بلا حراك. وحين أنهى والدُه حديثه، ابتسم ألوشا وقال: «حسنًا، سأفعل ذلك.» فقال الأب: «أحسنتَ، هذه هي الحكمة.»

رحل والدُه ودخلتْ أوستينيا، فأخبرها بما قاله له والدُه، (وكانت قد سمعتْ كلَّ شيءٍ من خلف الباب). قال لها غاضبًا: «هذا أمرٌ سيّئ، وأنا لا أستطيع منعه. هل تسمعين؟ لن يَحصل ذلك الأمر بأيّ ثمن.»

رفعتْ أوستينيا مئزرها، وانْهَمَر بكاؤها. هزّ ألوشا رأسه متأسّفًا حزينًا عليها، ثم قال: «ماذا أستطيع أنْ أفْعَل؟ يجب عليَّ أن أفْعَل ما أَمَرَني به والدي.»

عندما جنّ الليل بدأ ألوشا يغلق النوافذ. سألتْه سيّدةُ المنزل: «هل ستتخلّى عن ذلك الهراء كما أمَرَك والدُك؟» ابتسم ألوشا ثم قال: «بكُلِّ تأكيد.» ثمّ انفجر في البكاء.

انشغل ألوشا منذ ذلك اليوم بعمله كعادته، ولم يعدْ يتحَدّث مع أوستينيا عن موضوع الزواج.

وفي يومٍ مِن أيام الصوم الكبير،[1] طلب كبيرُ الخدَم من ألوشا تنظيفَ سطح البيت من الثلج، فصعد إلى السطح وبدأ بتنظيفه. في أثناء تجميعه بعضَ الكُتَل المجمّدة من المزراب، زلّتْ رجلُه وسقط من الأعلى. ولسُوء حظِّه لم يسْقُط على الثلج، بل على صفيحة حديديّة مثبّتة في أعلى الباب.

أتت أوستينيا تجري، وبرفقتها بنتُ التاجر. قالتا: «هل تأذّيت يا ألوشا؟» قال «آه! لا، لم أتأذّ.» ولكنه حين حاول الوقوف لَم يستطع، فابتسم.

أُدخل إلى المنزل، ثم وصل الطبيبُ وبدأ بفْحَصِهُ، فسأله عن مكان الألم. أجاب «أشعر بالألم في جميع أنحاء جسمي، ولكنّ هذا لا يهمّ؛ فأنا أخاف انزعاجَ سيدي ممّا حصل، ويجب أن أُخْبِر والدي بما حدث لي.»

ظلّ ألوشا مُمدّدًا على السرير يومين. وفي اليوم الثالث أرسلُوا في طلب الكاهن.

سألتْه أوستينا: «هل حقًّا ستموت؟» رَدّ عليها. «بالطبع سأموت، وهل يستطيع المرءُ أن يعيش إلى الأبد؟ لا بدَّ مِنَ الرحيل حين يحين الميعاد.» ثم نظر إليها وقال: «أشكركِ أوستينيا، فلقد كنتِ لطيفةً معي. ما أسعد حظّنا لأنّنا لم نتزوّج! كيف سيكون وضعُنا لو تزوّجْنا؟ وضعُنا الآن أفضل بكثيرٍ ممّا كان سيحدث!»

وصل الكاهن وبدأ يصلّي بخشوع. وكانتْ صلاته كأنها تقول: «كما كنتَ خَيِّرًا في هذه الدنيا، وكنتَ تطيع ولا تُؤذي أحدًا، فسوف يكون الأمرُ كذلك في الحياة الأخرى »

تحدّث ألوشا بصوت خافت. قال: «أنا عطشان.» ثمّ بدا عليه التعجُّب الشديد من شيءٍ ما، فاستلقى على ظهره والدهشةُ تكسو وجهَه، ثمّ مَدّد جسدَه ومات.

---

١ ـ الصومُ الكبيرُ عند المسيحيين الأرثوذكس هو صيام ٥٥ يومًا قبل عيد الفصح.